قال: أخشى أن يكون دورك إذن هو دور الخاطئة؟

قالت: هو ذاك، فإلى اللقاء ... فالتليفون لا يتسع لمثل هذا الحديث.

لَمْ يشعر ذلك اليوم وهو ينتظرها بخداعٍ ولا باستغفالٍ ولا احتقارٍ، ولكنه شعر بخسارةٍ وأسفٍ، وانتظرها كما ينتظر الطبيب مريضًا يلجأ إليه، واستقبلها عاطفًا عليها متطلعًا إلى ما وراء حديثها مستعدًّا للتسامح في الإصغاء إليها، فدخلت وهي تقول في غير احتجازٍ ولا امتناعٍ: لا قبلات ولا تحيات حتى تعرف قصتي وأعرف رأيك.

«اسمع يا فلان، إنني لا أؤمن بصداقة المرأة للمرأة ولا عزاء لي في معاشرة الصديقات المزعومات على الإطلاق، فإن لَمْ يكن إلى جانبي رجلٌ أهابه وأحبه وأعتمد على سنده فأنا في وَحْشَة الهالكين، وأنا ضعيفةٌ ضعيفةٌ ضعيفةٌ لا طاقة لي على دفع الغواية، وقد افترقنا يائِسَين ليس لك حق عندي وليس لي حق عندك، وأنا لا أحاسبك على شطحاتك في مصيفك إن كانت لك شطحات، ولكني أسمح لك أن تحاسبني على الصغيرة والكبيرة وأبوح لك بأنني زللتُ في المصيف وانغمستُ في صلةٍ غراميةٍ ليس فيها غرامٌ في الحقيقة، ولم أحضر إليك اليوم، بل لَمْ أرسل إليك الصور إلا وقد قطعتُ تلك الصلة وهيأت نفسي لاستئناف مودتنا القديمة، هأنذا الساعة بين يديك فماذا أنت قائل؟ هل تقبلني؟»

فاستزادها من خبر تلك الصلة التي لا غرام فيها كما تقول، واسترسلت هي في تفصيلات لَمْ تستر فيها سرًّا ولم تصبغ فيها أمرًا بغير لونه، ولم تقف دون معرة أو نقيصة كأنها تفرغ قلبها بين يدي الكاهن على حسب «إنذارها» في حديث التليفون.

قال بعد أن أصغى إليها في صمتٍ وإبهامٍ: إنني يا فلانة لا أملك أن أجيبك هذه الليلة، إن أنا قبلتك فلستُ آمن أن أندم، وإن أنا رفضتك فلستُ آمن كذلك أن أندم، ولكن دعيني بضعة أيام ريثما أروض سريرتي على عزمٍ وثيقٍ وأخبرك بما صحَّت نيتي عليه، غير خائف من عواقب العجلة.

وما انقضت تلك الأيام حتى استقبلها صافحًا، وسألها أن تذكر أبدًا أنه قد يفهم عذرها من الضعف، ولن يفهم لها عذرًا من الختل والخداع، وحمد لها صراحتها، ولكنه في الواقع لَمْ يسلم من الاحتراس والتوجس منذ تلك الساعة، ولم يزل على تفاهمٍ دخيلٍ بينه وبين طواياه أنه لا يأوي إلى حصنٍ حصينٍ، وأنه مع ذلك هو حصنه الذي لا بد أن يأوي إليه!

فلمَّا ساورته شبهات الشك توالت أمامه الدلائل من فلتات اللسان وشوارد الخواطر وعلامات الزينة والحلي والملابس، وما إلى ذلك من علامات هي لمن يعهدها أثبت من البراهين